المسكوت عنه الاجتماعي في الشعر الفاطمي
((دراسة في تحليل الخطاب))

أ.د. حسين علي عبد الحسين الدخيلي
قسم اللغة العربية- كلية التربية للعلوم الانسانية- جامعة ذي قار- العراق
dr.hassein.a.adbel@utq.edu.iq

م.م. افتخار عدس كاظم
مديرية تربية ذي قار-ذي قار- العراق

الكلمات المفتاحية : المسكوت، الاجتماعي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث الموسوم بـــ(المسكوت عنه الاجتماعي في الشعر الفاطمي) تقنيةً من تقانات اللغة وهي تقنية المسكوت عنه ونعني بها رغبة الأديب سواء أكان شاعراً ام كاتباً في الخروج على هامش الحريات الممنوحة له والسماح له بالدخول الى دائرة المحظورات المختلفة وقد اختار البحث من تلك المحظورات(المحظور الاجتماعي) عينةً لدراسته ، وقد وقف البحث عند الآليات والطرائق التي اعتمدها الشعراء ـــ عينة الدراسة ـــ كوسائل احترازية ساعدتهم في النجاة والافلات من الوقوع في يد السلطة (سلطة القبيلة والمجتمع والاعراف) وبالتالي يسهلُ عليهم نقدَها وكشفَ عيوبها بمساعدة هذه التقنية .

THE SOCIAL UNSPOKEN IN FATIMID POETRY (A STUDY IN DISCOURSE ANALYSIS)

Prof Dr. Hussein Ali Al-Dakhili
Department of Arabic Lauguage_ college of Education for Humanities_ University of Thi Qar -Thi Qar- Iraq

Iftikar Adas Kazem
Thi Qar Education Directorate – Thi Qar- Iraq
dr.hassein.a.adbel@utq.edu.iq

Keyword : the silent, social

Abstract

This research,tagged with (Social Untold in Fatimid Poetry) ,deals with a technique of language technology , which is the unspoken technique , by which we mean the writer's desire ,whether he is a poet or a writer, to go out on the margins of the freedoms granted to him and allow him to enter the circle of various taboos , and he chose the research from those prohibitions , (Social taboo) is a sample to study, and the research stopped at the mechanisms and methods adopted by the poets – the study sample-as precautionary means that helped them escape and escape from falling into the hands of the authority (the authority of the tribe, society and customs) and thus it is easy for them to criticize and reveal their flaws with the help of this technique.

المسكوت عنه الاجتماعي :ـ

من المعروف لدى الجميع أن اغلب المجتمعات في بناء انظمتها المجتمعية ، وعلى سير قوانينها والمحافظة عليها بوساطة التركيب الهرمي المجتمعي واستقراره ، لان الهرم الاجتماعي يُعتبر اساس بناء المجتمعات واستقرارها ، وتطورها ، ابتداءً من الاسرة ـ المجتمع الصغير ـ وتركيبها وانتهاءً بكافة المؤسسات العامة للدول .

إلّا إن الحياة الاجتماعية في الدولة الفاطمية لها خصوصية لأن فيها نوعاً من الاختلاف والتطور حيث " اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر الفاطمية مظاهر خاصة ، تقلبت فيها حياة الناس بين البذخ والترف قلّ ان نجدها في عصر آخر من عصور مصر الاسلامية ، وقد تجلّى بذخ الخلفاء ...في خزائن الفرش والامتعة والجواهر، والخيام والشراب.

فلا تخلو المنظومة الاجتماعية من تشكلات وتشعبات لربما لا يستطيع البحث الإلمام بها كلها ، ولذا فإنه سوف يقتصر على بعض القضايا المهمة في الدولة الفاطمية ، ولعلنا سوف نلقي الضوء على الحياة الاجتماعية في هذه الحقبة لتفتح لنا أفقاً في تفسير المناخ الاجتماعي وصلته بالشعر الذي يصدر عنه وعلاقته به ، فيكشف لنا المسكوت عنه تلك الامور التي لم يبح بها الشعراء آنذاك ، فاستعملوا الاضمار والسكوت فيها ، لان النص الادبي في بعض الاحيان يكون مضطراً الى الصمت تاركاً فراغات صامته لم يبح بها لكونه " يقع تحت سلطة التراث واللغة والدين والجنس والاعراف والتقاليد الادبية ...إضافة الى سلطة المجتمع والقبيلة والادب والاعراف الاجتماعية،وتمارس هذه السلطات العنف المعلن والمبطن ضد النص "[1]، فالسلطة الاجتماعية سلطة أكثر وقعاً في نفوس الشعراء من السلطات الاخرى ولاسيما وان الدولة الفاطمية على وجه الخصوص دولة عقائدية ومذهبية ، فالمسكوت عنه يكون في تلك الحالات اختزالاً (للمحرم والممنوع والمقموع) ، فالشعر الاجتماعي هنا يؤدي وظيفة ووظيفة " في إطاره الاجتماعي ، وهي وظيفة ثورية ... ، فالشعر يحيي الشعب ويحارب قاتليه ، وبه ينشر الطهر ، وبه يحصل السؤدد ، وبه تقارع الخطوب ، وبه يستصغر الموت ، وبه تلقح العقول ، وتصنع الشعوب "[2]

ولعل احدى واهم القضايا الاجتماعية التي لابد ان نتطرق لها قضية تهميش المرأة في المجتمع ،وذكرها في الشعر، لأنها تأخذ الركن الاعظم من التهميش في المجتمعات وخاصة

العربية منها فهي اعني المرأة ، كما يقول عبد الله ابراهيم إنها " دائماً قيد المساءلة ورهن المراقبة "[3]. ومن وجهة نظرنا هذا التهميش لربما ليس مقصوداً حتماً ، وانما من باب المحافظة على قداسة المرأة وهيبتها وعدم هدر كرامتها .

او لربما ، نظرة المجتمع الدونية لها ، ولاسيما وان المجتمعات العربية تمتاز بانها مجتمعات ذكورية بالدرجة الاولى رغم ذلك لا يخفى ان المرأة على مرّ الحضارات لعبت "دور المعلم الاول ، في تأريخ الحضارة ، فالمرأة اكثر حساً بالخفي والماورائي من الرجل ، واكثر منه تديناً وايماناً بالقوى الالهية ، واكثر شفافية وروحية ، فيما يتجه العقل الرجولي للتعامل مع ظواهر المادة ، تتجه نفس المرأة الى تحسب العوالم الروحانية ، وتلمس القوى الباطنية "[4] أي انها تملك تلك الروح والقوة التي تعطيها المجال للدخول في شتى المجالات فهي المعلمة الاولى تربية روحية وجسدية ، على مرّ الحقب وهذا يزيدها تدخلاً في اغلب المجالات الحياتية والنجاح والتقدم .

إننا وبوساطة استقراء عينة البحث نجد ان اغلب الشعراء الفاطميين ذكروا المرأة في اشعارهم وافردوا لها حيزاً في قصائدهم ، سواء أكان هذا الذكر مصرحاً به ام مبطناً وقد لا يكون عن تجارب شخصية وانما مسايرة للأغراض الشعرية ، فحفظوا مكانة المرأة الجسدية ولم يصرحوا بها ، حيث اتخذوها رمزاً اشاروا اليه بالإيماء ، باستعمال اللغة ودلالاتها المتعددة والمتجددة في آن واحد ، لان عملية الخلق الادبي بطبيعة الحال قد تخلق تأويلات عدة وهذه التأويلات تعطي لغةً حرة متجددة توحي بتعددية المعنى لتوضح روح النص وجماليته ، ذلك لأنّ " الانشغال على اللغة ـ وباللغة ـ في اطار النص الادبي ضروري جداً ، لان كل ابداع ، كما قال احد فلاسفة اللغة ، يعتبر حدثاً مهماً في حياة اللغة ، لأنه يعيد صياغة تراكيبها ويولد انساقاً تعبيرية جديدة ويخلق لألفاظها سياقات لم تعرفها من قبل "[5] .

فلغة المسكوت عنه تكشف عوالم مخبوءة وعلاقات مغيبة في النص ، باستعمال دلالات اللغة ، فنرى الشاعر ابا الفتح ضمن الفاظه ومعانيه دلالة مخبوءة في نصه الشعري الآتي يقول فيه [6]:-

فديتك ، قد وعدت فقل صريحاً حتى يخضّر للموعود عود
وقلت الجود بالموجود شرطي فهل يرتاح للموجود جـود

نجد الشاعر هنا ضمن نصه معاني والفاظ غير مباشرة ، قل ما يقال عنها انها تحمل دلالات مخبوءة موجهة للتأثير في المتلقي ، فتجلى المسكوت عنه في بعض الالفاظ (يخضرّ ـ عود ـ جود) نلاحظ انه لم يصرح بما يبتغيه بل عوض عنه بتلك الالفاظ ، فهو لم يصرح بما يختلج به نفسه من مشاعر وتقارب روحي وجسدي (بدلالة الاخضرار) و (العود) و (الجود) ، بل اكتفى بالإشارة ، كي يستطيع بذلك ان يوصل فكرةً مضمرة في ذاته الى السامع ، فنراه يقول (وعدت) ويقصد تقريب المسافة بينه وبين المخاطب ، ليحي ويثمر ذلك العود بالاخضرار .

فالشاعر في هذا النص وضع المرأة موضع تقديس وثيمة اشارية لا اكثر وليس غايته التهميش فوجه الخطاب بصيغة المسكوت عنه لأن النص ـ أي نص ـ عندما يضع الانثى مسكوتاً عنه لا يعني ذلك تهميشها " بل لوضعها في حيز التقديس التي ينبغي ألا تُدنس بالمعرفة الواقعية التي تصل الى الابتذال ، ... وهذه المرأة الحاضرة تخييلاً الغائبة واقعاً تكتسب انموذجاً آخر في النص لم يبتعد عن فضاء الغاب واقتراب من فضاء الترميز "[7].

هذا يعني أن الترميز للمرأة هنا جاء لحفظ قدسيتها وكرامتها وعدم التجاوز على حقها لان وجودها بمثابة الاستمرار للحياة وهي اصل للاخضرار وهذا ما لمحناه وفيما كشفه لنا المسكوت عنه ولغته الخاصة التي فتحت لنا آفاقاً اكثر جلاء على المعنى الحقيقي الذي لم يصرح به الشاعر وظلله لخوفه من السلطة الاجتماعية ، فبدأ ما كان يرغب به غامضاً مشوشاً والغموض لا يعني هنا " انك لاتحسم فيما تعنيه ، او تقصد الى ان تعني اشياء عديدة ، وفيه احتمال انك تعني واحداً او اكثر من شيئين ، او تعني كليهما معاً وان الحقيقة الواحدة ذات معانٍ عدة "[8] فالغموض والوضوح في النصوص اصبحا من اهم القضايا النقدية والجدلية الحديثة ،والتي توضح ماهية النص وموضوعاته ، فالفارق بين النص ذات الطبيعة الواضحة والغامضة اصبح معياراً للجودة والرداءة في كثير من الانواع الادبية ، فاختلاف نص معين عن غيره من النصوص تكشفه القراءة والتي تصبح بها الطاقة الدلالية للنص غير محددة [9]، وتتجلى تلك الطاقة الدلالية بفعل القراءة ، أي قراءة النص واستنطاقه ، كما ويعتمد ابو الفتح في نص آخر المسكوت عنه معياراً في بناء نصه الشعري يقول[10] :.

شكوت الحب كما يقل منـــــي حرارة احشائي ببرد رضابــه

فجاد ببخل ، او يموت معجّل فأبديت مرتاداً رضاب رضابه

صوّر لنا الشاعر في هذه الابيات قضية اجتماعية الا وهي شرف المرأة العربية وعفتها ولاسيما الفاطمية فعند قراءتنا لهذا النص نجد الشاعر ابدى غزلاً اعتيادياً موجهاً الى مخاطب ما ، كمعنى ظاهري لكن ما اراد أن يوصله الى المتلقي هو توجيه رسالة الى المجتمع ومرّرَ قضية ذات معنى جوهري وعلى الرغم من عدم تصريحه ببعض الالفاظ او المعاني التي يبتغيها من وراء ذلك الخطاب إلاّ إنه عوض عنها بألفاظ اقل وطأة كـ (الحب والحرارة والرضاب والبخل) فهي الفاظ ـ كما يبدو ـ اكثر رونقاً وزخرفة للنص لأنه " لا توجد كلمة تتصف بالقبح او الجمال في ذاتها او ان تكون في طبيعتها باعثةً للذة من عدمها " ولكن لكل كلمة جمال من التأثيرات الممكنة يختلف طبقاً للظروف التي توجد فيها "[11] . فخبأ الشاعر وراء لغة الاضمار معنى خفياً تمثل بلفظ (الموت) أراد أن يوصل من خلال رسالته المشفرة التي مفادها إن المرأة تفضل الموت على ان لا تتخلى عن عفتها مما جعل الشاعر يؤكد ذلك المعنى بعبارة (ابديت مرتاداً) أي اصراره على طلب النوال .

علماً أن هذا اللون من عدم التصريح بألفاظ الحب للمرأة والتغزّل بها لم ينفرد به هذا الشاعر بل وجدناه عند اغلب الشعراء الفاطميين في هذه الحقبة ، لانهم ينظرون للمرأة بوصفها كائناً محترماً وله خصوصياته فلا يُعبر عنها بألفاظ صريحة او مباشرة .

لذلك فنرى الشاعر داعي الدعاة قد كبت مشاعره لينتهي بالنص الى الاخفاء والتستر عما يريد فسلك مسلك السكوت الاخلاقي طريقاً في حديثه ، فيقول [12]: ـ

غدا البين من حبنا مستحيلا يشد الرحال يريد الرحيلا

فلهفي على مهجـــــة بينها وبين المسرة قد حال حيلاً

فلمـــا رآنـــي مستأســـــراً غدا باللقاء علينـــا بخيلا

نلحظ الشاعر في هذا النص كابتاً لواعج الشوق والحنين تجاه المتلقي لكونه محكوماً بسلطة اجتماعية واخلاقية فراح يعبّر بألفاظ اقل وطأة من الالفاظ المباشرة عن طريق احتمائه بلغة المسكوت عنه ولاسيما بعبارة (بخل) ليتجنب الخطاب المباشر فكانت هذه اللفظة رمزاً اشارياً للمخاطب بطلب نواله ، النص يبدو للقارئ منغلقاً لولا عبارة (البخل) ولعل هدف الشاعر من وراء هذا الخطاب وحديثه عن المرأة مادياً لكونه قصد بتلك العبارات الوصال والنوّال بالتقرب ، فأتخذ من هذه الدلالات اللفظية غير الصريحة غطاءً مادياً لتمرير ذلك المراد ، لتجنب المحاذير الاجتماعية ، فالشاعر المبدع عادة يسلك طرائق اخرى ومتنوعة للتعبير عما في نفسه باستعمال اللغة لان الشاعر سيكون من خلالها " في منطقة اكثر تحرراً من تأثيرات المناخ الاجتماعي لقدرته الفائقة على التحكم بدوافعه وميوله التي تواجه معارضه في الواقع والتي يتعذر التعبير عنها بالصيغ التقريرية المباشرة من خلال لعبة اللغة "[13] لكون الواقع الاجتماعي يحمل من المحاذير ما يحتّم على الشاعر نهج طرقاً توحي بالمخاتلة والكبت والتأجيل باستعمال دلالات اللغة ، لأنها تعمل كوسيلة اتصال بين المتكلم والمخاطب فتوضع بوساطة ذلك الاتصال العلاقة بين النص والواقع ، وقد يلجأ بعض الشعراء هرباً من السلطة الاجتماعية الى لغة المسكوت عنه بإضمار بعض الدلالات في النص كاستعمال بعض الشعراء الفاظ المذكر ويريد بها إضماراً لمؤنث ، فوجدنا هذا المسلك بكثرة عند الشعراء الفاطميين ولم يقتصر على شاعر دون آخر، نجده مثلاً عند الشاعر العقيلي* :[14]

غدا من الديـــر الى الـــــدار من حُسنه عار على العار
فقلت لما افتن فـــي مشيـــه اعنـــــده بالخالق البـــاري
ما احسنالزنار في خصره يا لك مـــــن خِصر وزنارِ**

نلاحظ الشاعر في هذه الابيات يحاور مذكراً كمعنى ظاهري ، فهو اتخذ من صيغة المذكر غطاءً مادياً لتمرير ما يضمر في نصه من جهة ولتشتيت ذهن المتلقي من جهة اخرى ، فاستعمل ضمير الهاء كثيمة نصية لكي يجعله غطاءً له لكسب المعنى ، ولعدم عبور حاجز خصوصية المرأة ، على الرغم من جود الفاظ توحي بالتغزل بالأنثى لكنها الفاظ جاءت ذات دلالات مخبوءة ، كـ (الخصر ، الزنار) لكن الشاعر استعمل براعته الشعرية وحنكته فعمد الى تغليف المعنى

الظاهري واكسائه حُلل العفة ، وابعاد التقريرية المباشرة الى المقصود بعينه ، فاللغة الشعرية هنا اسهمت بالمراوغة وصرف المعنى من المؤنث المقصود الحقيقي وتبطينه ، فالباعث وراء هذا كله استعمال وظيفة اللغة ، فقد جاءت اللغة إشارية رمزية وظيفتها اتصاليه بث الواقع والخيال لأنه " اذا كانت الوظيفة الاعلامية الاتصالية للغة لا تنفصل عن طبيعتها الرمزية فإن وظيفة النص في الثقافة ـ وهي وظيفة اعلامية بوصف النص رسالة ... لا تنفصل كذلك عن النظام اللغوي الذي ينتمي اليه ، ومن ثم لا ينفصل عن مجال الثقافة والواقع "[15] فتلعب اللغة ووظيفتها دوراً في النص على انه رسالة للمتلقي والمخاطب معاً باستعمال الاساليب الاشارية ومضات للمتلقي والقارئ عليه كشف تلك الومضات الإشارية وإماطة اللثام عن دلالاتها وفك شفراتها ، واكتناه المكبوت ، بوساطة ربط المتلقي للمنطوق العام اللفظي للنص والمفهوم الذهني الذي توصل اليه بفعل التنقيب عن المعنى المغيب بالقراءة فهذا سوق يبلور المراد الحقيقي من النص وما يخبئ .

لذا فقد شكّل الكبت والاضمار ظاهرة جلية ـ وقد وجدنا هذا المعنى عند الكثير من الشعراء ولم يقتصر على شاعر دون غيره ـ وكان لافتاً للانتباه كذلك ، فقد لاحظنا انهم لم يتغذوا من المرأة في قصائدهم مجسماً مثالياً للجمال فقط ، وانما غطاءً مادياً لنقد قضايا مجتمعية ذات محاذير اخلاقية ، فكرس الشعراء الفاطميون الصورة الحسية للمرأة في ثنايا قصائدهم ، لكن اكثرهم قد يسوّغها على وفق رؤية وفلسفة خاصة به ، فلا يستحضرها على انها جسد واقعي ، بل كما اسلفنا ـ في موضع آخر ـ اتخذوها رمزاً ولم تكن اغلب قصصهم الغرامية سوى رموز غير نابعة من تجارب واقعية شخصية وانما تماهياً مع العرض الشعري من جهة ونقداً للمساوئ الاجتماعية من جهة اخرى .

كما إننا وجدنا أن هناك خطابات شعرية اخرى تشكلت في المنظومة الاجتماعية ، وقد طرقها اغلب الشعراء في ثنايا قصائدهم ولعل واحدة منها هي الشكوى والحنين الى الاوطان والاغتراب النفسي والروحي معاً ، وهذا الاغتراب الذي طالعنا به الشعراء الفاطميون يمثل بحد ذاته مسكوتاً عنه لأنه الانسان" عموماً والشاعر على وجه الخصوص يكون تحت تأثير السلطة تدفع به نفسه الى بث شكواه وحزنه عبر أشعاره، ولعلّ المبالغة في طرد الناس عن اوطانهم ومنهم الشعراء " لم يكن سوى آليه من آليات الضبط السياسي والاداري ، وإلا فلا سبيل إلى تفريغ الكامن النصي

إلا بتحويل اتجاهه الى الحنين الى الاوطان والاصل ، حتى عدّ غرضاً من الاغراض "[16] لذلك فإن اخراج الناس وحالة الطرد القسري التي يتعرض لها المسلمون على وجه الخصوص والشعراء منهم ، ما هي إلا سياسة تتبعها الدولة لإسكات تلك الالسن التي تصبح عبأ على السياسات المستبدة المتبعة من قبل الحكومة فنجد الشاعر في هذا المضمار يقول[17] :-

يا للتغرب انت بئس الـــــــداء فغناك فقرٌ ، والعطـاء عناء

والعذل ذل،والسعـــادة شقــوة واليسر عُسر ، والبقاء فناء

والعرف منك النكران يوماً اتى انـــــــى وحالك كلها نكـــراءُ

يطالعنا الشاعر في هذه الابيات صورة ذهنية لما يعانيه من ألم الاغتراب ومشيراً من خلالها الى كم الهموم والاحزان التي المّت به ، لشعوره بالظلم والجور في مجتمعه الذي أفقدته السياسات الجائرة توازنه الاجتماعي وعدالته المعهودة ، لان اغلب السلطات السياسية إذ اتصفت بالاستبداد تحاول أن تجعل من الانسان الذي يرضخ تحت وطأتها محطم الكرامة فهي تحاول ان تصهره في قوالب معدّه لتفريغ معنى الانسانية من قلبه ، وهذا بدوره يولد احساساً داخلياً مؤلماً لديه فإن " الكيان الاجتماعي يتجاوز خصوصية الافراد ، لان العالم الذي يعيش فيه الانسان ربما بعيد الى حد كبير جداً من ابتكار الانسان نفسه ، وان النظم السياسية والاجتماعية والحضارية تمثل الجوهر الاجتماعي الذي تمخض عنه هذا الدور الانساني وبدا يكون للاغتراب دلالة مزدوجة انه يعني من جهة اولى التخلي والتنازل ، كما يعني من جهة اخرى الانفصال عن النفس لعجــز الفرد عن الاتحـاد بالجوهـر الاجتماعي " [18].

فقد جسد هذا الشعور انفصالاً عن الجماعة مما حدا بالشاعر الى أن يعيش فوضوية في حياته ، هذا ما نستشفه من خلال نصّه الذي دمج فيه الموت بالحياة والحياة بالموت تلك الثنائية التي تمخضت نتيجة الحيرة والالم الذي ألما به ، وهو بعيد عن احضان الوطن الروحي ، وليس الوطن المكاني آنذاك ، فأتخذ النص من سلوك الشكوى والحنين إيماءات للرفض الفكري والسياسي السائد فشبهه بأدق الوصف على انه (الداء) .

ولعل هذا الداء كان نتاج الانتكاس في المنظومة الاجتماعية الذي أدى بدوره مما يؤدي الى انتكاس في القيم الاخلاقية الاصيلة في كافة مؤسسات المجتمع فيجعل الفرد يعاني من الغربة وهو في بلده ومع المحيطين به ليس على مستوى السلطة فحسب بل حتى بين الاصدقاء والعلاقات الاجتماعية كافة .

كما نجد شاعراً آخر جسد ذلك المعنى في شعره معتمداً آلية المسكوت عنه طريقاً في ذلك ، يقول [19] :-

اني فتحت للناس من كل غريبة ومحكمة ينشق منها الصفا الصلد
ومن كان ذا علم بأهل زمانـــه تيقن ان النـــــــــاس كلهم وغدُ
اذا فرقوا ابدوا وداداً وذلـــــة وانفسهم حُـــرب والسنهم لـــــدٌ

نلاحظ من سياق هذا النص ان الشاعر قد وجه خطاباً حملّه نقداً اجتماعياً حول موضوعة الصداقة والصداقات الاجتماعية التي تحمل شتى الموضوعات في ثناياها ولاسيما النفاق الذي كان ولازال آفة دمرت الكثير من العلاقات الاجتماعية ولاسيما العلاقات التي تبنى على المصالح ، فهنا يتعمق شعر الاغتراب اكثر عندما يحس الشخص بتلك الغربة من أقرب الناس اليه ، فاراد الشاعر بإطلاق هكذا خطاب لتسليط الضوء على مسألة مهمة في المجتمع فجعل الشاعر خطابه عاماً مطلقاً من الناحية الظاهرية للنص ، لكنه اضمر فيه بنية عميقة المعنى حول توجيه خطاب الى فئة او اشخاص مقربين منه بأعينهم ، حفاظاً منه على بقاء الود ، وعدم المجابهة حتى لا تنتهي به الى التجريح للمقابل فصرف الخطاب ببعض الالفاظ الاشارية التي تفي بالغرض ، بدلاً من المباشرة ، فوصف النفس الصافية كأن يريد بها نفسه ـ بدلالة عبارة (اني) ـ ، قد تواجه في الحياة نفوساً مظلمة ، مشبعة بقلة الوفاء والنكران فإذا خافوا توددوا وكانت فيهم اخلاق العبيد ، بإبداء المودة والمحبة وإذا امنوا انقلبوا وغدروا وسلطوا السنّة لدّ ، غير مكترثين لذلك فقلوبهم جمدت واثقلت نفوسهم خربت .

فجسد الشاعر هذه الموضوعة الاجتماعية في ابياته كظاهرة اجتماعية عامة لكنه لم يُلن ذلك وإنما خبأها خلف لغة المسكوت عنه لان الشعراء يتميزون غالباً " برهافة الحس والانغماس في التأملات الشاردة ، ولذلك فإن تعقيدات الحياة الاجتماعية ، وتنامي الاهتمام بالماديات ، عادة

ما تحبط الشعراء ، وتشكل انسداداً في وجوههم ، فيلجأون الى كونهم الشعري متخذين من سمة الهروب او سمة العبثية ، وكلاهما نوع من الصدود ، او الانفلات من واقع يشعرون انهم لا ينتمون اليه وجدانياً " [20].

فقد عمد الشعراء الى توجيه نقودهم اللاذعة حول المساوئ الاجتماعية لكن بعيداً عن لغة المباشرة والبوح بل الاعتماد على الاشارات والتلميحات بالاعتماد على لغة المسكوت عنه لان سكوتهم هذا لا يكون إلا كبتاً اضطرارياً لا يمكن التصريح به لان غاية الشاعر من هذا توجيه نقد وليس فضحاً لمساوئ البلد من باب لفت الانتباه لمن هم قائمون على امور الدولة ، فقد نجد الكثير من المعاني التي طرقها الشعراء حوّلت بلغة المسكوت عنه الى خطاب مضمر في آنٍ واحد ،لان اللغة العادية في بعض الاحيان لا تعطي احتواءً حقيقياً وكاملاً للتجربة .

هذا ما جعل ابن وكيع أحد شعراء الدولة الفاطمية الى ان يبني فكرته الشعرية عن طريق الرمز باستعمال دلالة مضمرة المعنى فنراه يقول[21] :-

اذا اردت بقاء الـــ وداد من احبابــك

فجد لهم بالتغاضي وعظهم من عتابك

نلاحظ الشاعر هنا قد وجه خطاباً مضمراً تمحور حول فكرة (التغاضي) والابتعاد عن العتاب من باب النصح فقد اختزل الموضوع بفكرة غير مباشرة حين اكتفى بالإيحاء والتلميح وكأنما يعظ نفسه اولاً ثم اشخاص معينين بعينهم وربما اراد الشاعر معنى آخر كهجاء او تعريض اطلقه بوجه شخص على وجه العموم لكنه يريد به المخاطب ذاته ، فوجه كلامه على انه نصيحة عامة إنّ فيه إضماراً ومسكوتاً عنه لأراد بهما شخصاً معيناً وهو المخاطب ذاته .

وقد بيّن ان مسألة العتاب لا تجدي نفعاً ان لم يحترز الانسان بالتغاضي والسكوت والكتم للترفع عن المواجهة لاحترام الذات وحفاظاً على بقاء الود فتمحور المسكوت عنه في النص بايصال فكرة الى المخاطب المعني والمتلقي عموماً.

ولم يكن الشعراء الفاطميون عند هذا الحد من النقد الاجتماعي بل تحدثوا ناقدين لأغلب الموضوعات الاجتماعية والحضارية منها على وجه الخصوص لكن بطريقة التلميح والاشارة

والموارية عبر آلية المسكوت عنه ولعل في مقدمة تلك الموضوعات ما كان موجوداً وتطور عبر الاجيال حتى أصبح من الموروثات الخاطئة بسبب الفهم الخاطئ لها ، فالشاعر هنا يحاول ان ينقل تلك المساوئ ـ لو صح التعبير ـ وايصالها الى المقابل بلغة اكثر سلاسة باستعمال لغة المسكوت عنه عن طريق توجيه خطاب تهذيبي ، لكي يكون اكثر قبولاً عند المتلقي ، لان النص سواء أكان ادبياً ام فكرياً ام جمالياً فهو مرتبط بينابيع الدولة ومؤسساتها ، فلم يلبث إلا ان يحمل في ثناياه الكثير من الاوهام والتحيزات بل وحتى الجرائم ، التي تقع في حيز تلك المؤسسات ، فلاريب ان ينطوي هذا الخطاب على خفايا [22]. وكشف وتذليل عقبة تلك الخفايا من مهام الناقد والقارئ معاً و " الناقد في فعله النقدي يذهب اينما يجد وسيلة لإضاءة النص كي يصل الى خفاياه "[23] .

وقد يعطي استعمال بعض التراكيب ذات المحمولات الدلالية طاقة وقدرة على الحركة في النص لكشف بنياته المضمرة فنجد ابا الفتح يقول في هذا المضمار[24] :.

مواعيده في الوصل احلام نائـــم اشبههـــا بالقفـــر وبسرابـــــــه

فمن لي بوجه لو تخير في الدجى أخو مسفرٍ ، في ليل غيم سرى به

نرى الشاعر هنا قد ابدى خطاباً موجهاً ،كمعطى ظاهري للنص ، عن موضوعة المواعيد والوعود وعدم الالتزام إلاّ إنه ربط بين مسألة الوعد وإخلافه بالخُلق ، ولكن يبقى السؤال هل هناك مغزىً آخر اراده الشاعر في هكذا خطاب ودلالة ظاهرية لاسيما خلف البنية الظاهرة لعبارة (المواعيد) .

نقول نعم فالشاعر احتمى وراء لغة المسكوت عنه لإخفاء دلالة هو قاصدها بمعنى مغاير فأقحم الشاعر التشبيهات والصيغ والمفردات معاً قد تبدو أقرب الى الوصفية الباهتة إلاّ إنها قادرة على إثارة عاطفة المتلقي وتحريك ذهنه في كشف الخبايا ، فكلمة (المواعيد) جاءت لتكشف الخرق الحضاري للقيم الموروثة في عدم احترام الوقت وهي تنعكس انعكاساً سلبياً على الاخلاق بالإضافة الى ضمير(الهاء) الذي جاء كثيمة إشارية وضعها الناص في نصه لأنها تحيل النص الى مخاطب محذور الذكر ، كأن يكون هذا المخاطب السلطة الحاكمة ذاتها ، وعن مواعيدها

المجحفة بحق رعاياها ، بدلالة ارتباط هذه اللفظة بـ (احلام نائم وقفر وسراب) كالأرض الخاوية والسراب الكاذب المخادع للعين كأنها مستحيلة الحصول وتبقى مجرد مواعيد لا اكثر .

لكننا نلاحظ في البيت الثاني من النص إنّ الشاعر غلّف المعنى العام بإحالة خرق المواعيد الى الجانب الاجتماعي بدلالة (اخو سفرٍ) وكأنه اراد بتوجيه الخطاب الى متلقٍ بعينه لكي يمرر المعنى الحقيقي للبيت الاول لان " النص الادبي يأخذ استقراره ، بعد انجازه لغة ، ويأخذ انسجامه وفق النظام الذي يضبط كيانه ، ويحقق ادبيته بتحقيق انزياحه ، ولا يؤتى له عدوله عن مألوف القول دون صنعة فنية ، وهذا ما يحقق للخطاب الادبي تأثيره ، ويمكنه من ابلاغ رسالته الادبية ، يمكن القبض عليها دون عناء ، بل الذي يميز الخطاب هو التلميح وعدم التصريح "[25].

فتتحقق بلاغة النص في الايحاء ومدى التأثير في ايصال تلك الرسالة لمتلقي وهو بدوره يقوم بمحاكاة النص واستجلاء ما استخفي وراءه ، وفك اسرار التعدد الدلالي للفظة الواحدة بما يخدم النص والمعنى الخفي ، كما نجد الشاعر ابا الفتح اعتمد آلية المسكوت عنه في خطابه فجاء بلفظة (المواعيد) في موضع آخر بمعنىً مغاير يقول[26] :.

ارجي دنو الوصل من بَعد بُعـــده كما قد ترجى في الجدوب السحائب

واكثر في الهجر العتاب كأننـــي لدهري من ظلم الكـــرام اعـــاتب

واهوى مواعيد المنى عنك بالرضا وقد تمتع الآمال وهي كـــــواذب

نلاحظ ان النص جاء مغلقاً في بنيته الظاهرية لولا عبارة (المواعيد) التي انزاحت لكي تكسر افق انتظار المتلقي ، فالموضوعية الاساسية هي (المواعيد) ولكن انزياح اللفظة جاء مغايراً للمعنى الظاهري للنص ، فقد رسمت صورة اخرى اخذت مسار النص الى معنى آخر لأنها دخلت ضمن الاطار الاخلاقي فيما يخص المرأة بدلالة الالفاظ الآتية (الوصل والهجر والظلم) فهذه الصيغ جاء بها الشاعر بمثابة علامات لما تحمله من دلالة مضمرة اراد ابو الفتح السكوت عنها تمثلت تلك الدلالة بطلب وصال المخاطب وهو بدوره امتنع عن الوصل واخلف مواعيده ، والمغزى وراء اقحام الشاعر اللفظة الاساسية للنص وارتباطها بالألفاظ الاخرى كثيمة إشارية لإخفاء المعنى الحقيقي وعدم التصريح به والاكتفاء بالتلميح والسبب يعود الى حساسية الموقف ومخافة الناص من مواجهة السلطة الاجتماعية آنذاك ، لذلك فإنه يُحيل لغته الى لغة الاضمار باكتمال المسكوت عنه

لان " فهم النص يعني التقاط لغته على انها موجهة صوب قارئ في مجال معين " [27] ولعل الشاعر اراد ابعاد ذلك التوجيه عن المخاطب لكي لا يقع في محذور اجتماعي لاسيما وان المخاطب يعدّ من المحذور الاجتماعي ونقصد به (المرأة) .

فقد لاحظنا في النصين السابقين ان الفظة (مواعيد) عندما دخلت في حيز المسكوت عنه فإنها انزاحت عن افق توقعها لدى المتلقي ودخلت ساحة المسكوت عنه وهذا الانزياح فرضته المفارقة الزمانية والمكاني للغة التي اطلق فيها الناص خطابه فتارة جاءت بمعنى سياسي(أمني) وتارة اخرى بمعنى اجتماعي (اخلاقي) ، ولذلك فالتوظيف الدلالي يتمظهر في الزمان والمكان معاً أُلقي فيه الخطاب اضافة الى دلالات اللغة لاسيما اللغة الإضمارية منها و " التي ترمي وتلوح وتستند الى ما يسميه الأسلوبيون الانحرافات الموضعية والمعجمية والدلالية والنحوية والتركيبية والاستدلالية ، لا ينشأ عنها عند القراءة تفسير احادي لأنها تقضي بالضرورة الى امكانات واسعة "[28].

وعوداً على ذي بدء فهناك بعض المسائل التي لم يلبث الشعراء الفاطميون إلا وخاضوا في غمارها في ثنايا نصوصهم باستعمال تقنية المسكوت عنه ، لان تلك المسائل الاجتماعية اخذت حيزاً في المجتمع آنذاك ، ولعلها مسائل جوهرية تمس القيم الحضارية للمنظومة الاجتماعية والتي تعكس سلباً على الاخلاق الاصيلة للأفراد ولعلنا نجد وصف لهذه المواضيع عند الشاعر يقول[29] :- (الوافر)

ككلب الصيد يمسك وهو طاهٍ فريسته ليأكلها سواه

فلو تأملنا النص لوجدنا ان الشاعر صور لنا صفه ذميمة في المجتمع وهي البخل التي تعد من الآفات التي تدمر المجتمعات وتهد كيانها وأركانها الاجتماعية فشبهه (بكلب الصيد) وهو اشد تشبيه ممكن ان يصفه الشاعر لهكذا صفة مذمومة كما اعتقد ، فينال منه بالسخرية والتهكم وانه لا يحصل على شيء من تلك الفريسة سوى العناء والتعب وبالتالي فهي الى الورثة من بعده ، فعندما وارب الشاعر لهذه الصفة بهكذا رمز لكي يغتنم الفرصة في اطلاق خطابه وجههُ الى شخص معين ، لكن المعنى الخفي وراء هذا الخطاب ـ كما يبدو ـ هو توجيه الكلام الى اصحاب

الثروات واللاهثين وراء المال والمناصب وليس عامة الناس البسطاء ، فالخطاب موجهٌ صوب السلطة العليا للدولة على وجه الخصوص لا الغاية من ذلك لفت انتباه المخاطب وتحريك ذهنه وكذلك المتلقي ، من باب النقد وتذكير المخاطب .

كما لاحظنا هذه اللفظة او موضوعة البخل جاءت بمعنى آخر في موضع آخر كما في قول الشاعر :-

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً فقلت هيهات ، عندكم غاب اطيبه

لوجاد هان قلت : الجود عادتـه وانما عُزّ لمـــا عَـــزّ مطلبـــــه

يشير الشاعر في نصّه الى لفظة البخل إشارة ترميزية ذات ابعاد دلالية ، إذ اراد بالبخل معنىً خفياً وامكانية تفسيرها على سياق اجتماعي اخلاقي فمن الملاحظ إن الشاعر افتتح نصه بلفظة (قالوا) وكأنّ هناك حواراً مع شخصية ما ، بالمقابل هناك محذور اخلاقي من عدم التصريح بدلالة لفظة (العشق) والعشق هنا بما يخص مشاعر الشاعر والحب لشخص بعينه ، فقد تمثلت تلك الدلالة في بخل الشخص المراد عن وطلب النوال ، وقد جسد الشاعر ذلك في نصه وهو يخلق فضاء فكرا ابعاده حوار مغلق صورةُ الشاعر واختزله بعزة وكرامة المخاطب رغم بخله عليه . فلجأ الى العبارات المضمرة واحتمى بلغة المسكوت منه وعدم البوح لأنه محكوم بسلطة اجتماعية ولا يمكن له البوح مما جعله يلجأ " الى الصيغ المضمرة لتذليل عقبة وجود بعض المحرمات في مجتمع معين ، وذلك بغية احباط بعض الرقابات ذات الطابع الاخلاقي والسياسي او القانوني والاحتيال على قانون الصمت الذي يحضر التحدث عن بعض الاغراض الخطابية ، ففي سياق اجتماعي معين ، ثمة العديد من الامور التي ينبغي(عدم الاتيان على ذكرها) بشكل مباشر على الاقل "[30]لكونها تحوي بعض المحاذير التي يمكن المساس بها ، فقد لاحظنا في موضوعة البخل ايضاً انزيحات وانحرافات لغوية لهذه اللفظة ارتبطت بالمعنى المضمر والمؤول اليه .إضافة الى الفضاء الذي القيت فيه لأنها ظاهرياً تشكل بنية مستقلة نسبياً ، وهي إشارة فاعلة في النص حملت في مكنوناتها معاني مخبوءة لأثارة اهتمام الآخر.

ولذلك " تتحلى الوظيفة الاجتماعية للفن ، فيما يوفر من غبطة وفرح وامل سعيد في الحياة الحالية ، والمستقبلية للمتلقي ، بوحدة منظمة وايقاعية ، تنتقل عدواها من الصنيع الفني الى روح وعقل ، المتفرج ، او السامع نفسه ، ويجد سلواه وعزاءه ، فيما يشبع رغائبه المكبوتة ، الذي توعد به الاعمال الفنية "[31] ولعل المضامين الاجتماعية تبدو جلية في شعر الفاطميين لأنها تعبر عن احساسهم الشامل بالحياة الاجتماعية ، وهي ليست قضايا جزئية وفردية تغيب عن مشاعرهم بزوال احداثها .

هوامش البحث :

([1]) المسكوت والمقموع ، فاضل ثامر : 10 ـ 11 .

([2]) النص الغائب : 112 .

([3]) موسوعة السرد : 333 .

([4]) المسكوت عنه في ملحمة كلكامش : 108 ـ 109 .

([5]) نظرية النص (من بنية المعنى الى سيميائية الدال) ، د. حسين خضري : 266 .

([6]) ديوانه : 73 .

([7]) اشتغال العتبات في رواية من انت ايها الملاك (دراسة في المسكوت عنه) : د. هشام محمد ، ع 47 ، 669 .

([8]) فلسفة المعنى : لواء الفواز : ص169 ، وهو رأي الناقد الانكليزي وليم امبسون ، نقلاً عن النقد الادبي ومدارسه الحديثه : ستانلي هايمن : (2ـ 55)

([9]) ينظر : مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) ، نصر حامد ابو زيد : 177 .

([10]) ديوانه : 42 .

([11]) مبادىء النقد الادبي والعلم والشعر ، أ .أ . ريتشارد : تر: محمد بلاوي : 190 .

([12]) ديوانه : 236 .

([13]) جماليات النص الادبي (دراسات في البنية والدلالة) : د. مسلم حسب حسين : 121 .

* العقيلي: وهو ابو الحسن علي بن الحسين بن حيدره العقيلي ينتهي نسبه الى عقيل بن ابي طالب من شعراء مصر ، سكن الفسطاط ، تجمع المصادر على انه عاش في النصف الثاني من القرن الرابع للهجره ، وامتد به العمر الى منتصف القرن الخامس للهجرة له ديوان شعر مطبوع (ينظر :ترجمته وبعض اخباره وشعره في ديوانه المقدمة ويتيمة الدهر : 1/ 501 ـ 503 ، وفوات الوفيات ، 3 / 18 ، الوافي بالوفيات : 21 ، 25 ـ 38 ، الادب في العصر الفاطمي : 2 / 102 ـ 114 ، الاعلام : 4 / 279 ؛ ومصر الشاعرة في العصر الفاطمي : 179 ، 240 .

([14]) ديوانه : 144 .

** الزنار : هو ما يربط على الخصر .

([15]) مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) ، نصر حامد ابو زيد : 25 .
([16]) المسكوت عنه في الادب العربي : د. حميد : 162 .
([17]) داعي الدعاة : 224 .
([18]) الاغتراب في الثقافة العربية ، د. حليم بركات : 116 ـ 117 .
([19])تميم بن المعز : 34 .
([20]) وحدة النص ، ايمان عيسى : 249 .
([21]) ابن وكيع : 45 ـ 46 .
([22])ينظر : النقد الثقافي في النص الادبي ، سمير الخليل : 49 .
([23]) المصدر نفسه والصفحة .
([24]) ابو الفتح : 41 .
([25])الاسلوبية في النقد الادبي الحديث ، نور الدين السد : 246 .
([26]) ديوانه : 43 .
([27])اللغة والتفسير والتواصل : 170 .
([28]) النص الشعري ومشكلات التفسير ، د. عاطف جودة : 151 .
([29])ابن وكيع : 43 .
([30]) المضمر : 498 .
([31]) المعنى الجمالي ، أ . د . عقيل مهدي : 42 .

مصادر البحث :

1- الاسلوبية في النقد الادبي الحديث ، نور الدين السد :.
2- اشتغال العتبات في رواية من انت ايها الملاك (دراسة في المسكوت عنه) : د. هشام محمد ، ، مجلة ديالى ، كلية التربية ع 4، 2010 ،
3- الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الانسان بين الحلم والواقع) : د حليم بركات ، مركز الدراسات العربية ، ط1 ، 2006م
4- جماليات النص الادبي (دراسات في البنية والدلالة): د. مسلم حسب حسين ، دار السياب ، لندن ، ط1 ، 2007
5- ديوان ابن وكيع ، تحقيق د. هلال ناجي ، دار الجبل ، بيروت ، ط1 ، 1991م .
6- ديوان ابي الفتح :

7- ديوان تميم بن المعز لله الفاطمي ، تحقيق محمد حسن الاعظمي : دار المنتظر ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1996م

8- ديوان داعي الدعاة ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ط1 ، 1949

9- ديوان الشريف العقيلي ، تحقيق زكي المحاسني ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة (د.ت)

10- فلسفة المعنى ، في النقد العربي المشرقي المعاصر ، لواء الفواز ، من اصدار مشروع بغداد ، ط1 ، 2013

11- اللغة والتفسير والتواصل :د. مصطفى ناصف ، عالم المعرفة ، 1995 .

12- مبادئ النقد الادبي والعلم والشعر ، أ. أ.ريتشارد ، ترجمة محمد مصطفى بدوي ، المؤسسه المصرية العامة ، 1963

13- المسكوت عنه في الادب العربي الاسلامي (دراسة في تحليل الخطاب) : حميد فرج عيسى ، اطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، 2015م

14- المسكوت عنه في ملحمة كلكامش ، ناجح المعموري ، دار المدى ، بغداد ، 2014.

15- المسكوت والمقموع عنه في السرد : فاضل ثامر ، دار المدى للطباعة والنشر ، 2004 .

16- المضمر : كارتين كير برات – اوريكيوني ، ترجمة ، ريتا خاطر ، راجعه ، جوزيف شريم ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط1 ، 2008 .

17- المعنى الجمالي ، أ.د عقيل مهدي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ط1، 2008م.

18- مفهوم النص (دراسة في علوم القران): نصر حامد ابو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط6 ، 2005.

19- موسوعة السرد : عبد الله ابراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2005.

20- النص الشعري ومشكلات التفسير : عاطف جوده نصر ، مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية العربية للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1996م

21- النص الغائب في القصيدة العربية الحديثة ، عبد السلام الزبيدي ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2012م

22- نظرية النص (من بنية المعنى الى سيميائية الدال) ، د. حسين خمري ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2007

23- النقد الثقافي من النص الادبي الى الخطاب : د. سمير الخليل ، دار الجواهري ، بيروت ، ط1 ، 2012

24- وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، د. ايمان عيسى الناصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2011 .